الكتاب الجديد

المستحيل

رواية بقلم مصطفى محمود

يكفي ان يقال ، في معرض الثناء على مصطفى محمود ، انه كاتب يستحق الدراسة . فكتاباته تترك وراءها اثرا .. كالقارب البخاري الذي لا يترك صفحة الماء مثلما وجدها . انه كاتب مشاكل ، بل يكاد هو نفسه ان يكون مشكلة ! وهو قد اختار لنفسه طريقا وعرا ، ذلك لان الاسئلة التي يطرحها ، والتي يحاول جاهدا الاجابة عليها ، اسئلة معقدة ، ووراء كتابه الاخير يقف (اكل عيش) و (اله الانسان) و (قطعة السكر) و (اعترفوا لي) ومقالات وخواطر تترى على صفحات « صباح الخير » .

ولقد تفرغ الطبيب لكتابة ، بعد ان استفاد ـ بكل تأكيد ـ من مهنته التي عرفته بقطاعات من الحياة . والنبذة التي جاءت عنه على غلاف « المستحيل » تقول انه « .. تخصص في الامراض الصدرية .. ثم تفرغ للكتابة . » ولكن ، هل ترك الطب حقا لمجرد انه يريد ان يتفرغ ، لمجرد ان « صاحب بالين كداب » ؟ لمجرد ان الوقت ، من حيث هو وقت لا يتسع للمهنتين ؟ لا . ليس هذا هو الجواب الوحيد الكامل . لقد ترك مهنة الطب لانها ولدت في نفسه صراعا مدمرا . ان هذه المهنة بالذات تجعله ينظر الى الاشياء من بعيد ، غير ان الفنان فيه يريد ان يندمج معها ، اذ يسعى وراء القلق ، ووراء لذة الشعور . اما الطبيب ـ في نظره هو ـ فمستريح هادىء بعيد عن زوابع القلق ، انه كمن يلعب الشطرنج وهو مسترخ على مقعد مريح . وفي ذلك يقول في كتابه « ابليس » :

« ان الطبيب حينما يكشف على امرأة عارية لا ينظر اليها بقلبه ، ولكنه ينظر اليها بعقله .. انه يقطع صلة الشعور التي تربطه بمريضته ، ويكتفي بالتفرج .. وهو لهذا لا يبكي اذا اكتشف ان مريضته عندها سرطان » . (ص ١٦)

ان الفنان في مصطفى محمود يتمرد على الطبيب ويجبره في النهاية على ان يتفرغ للفن . وتكون النتيجة هذا السيل من المقالة والافكار والقصص و .. « المستحيل » .

انه كتاب حزين ، وحين اقول انه رواية اتردد بعض الشيء ، فالذي يطالعه يكاد يدرجه تحت قائمة اليوميات ، او الاعترافات ، او الخواطر. وسنظلم الكتاب والكاتب وفن الرواية اذا قلنا ان « المستحيل » رواية ، لان هذه التسمية ستفرض موازين ومقاييس ليست موجودة في الكتاب . ان الشيء الوحيد الذي يشترك فيه مع الرواية هو ان هناك احداثا ، اما البناء والصنعة والتركيب فاشياء ليست موجودة بصورة ملموسة في « المستحيل ». ان هناك جملا كثيرة تقف كل واحدة منها في سطر او سطرين (مثال هذا ما جاء في صفحة٣٤ وصفحة ١٥٦)فتذكرنا بالخواطر . وهناك جوانب انطباعية صارخة في صفحات الكتاب نحس ازاءها ان المؤلف هو الذي يقولها ، فنتذكر على الفور ادب الاعترافات اما الافكار فيكتظ بها الكتاب حتى نحس بان « المستحيل » وجهة نظر او وثيقة لا رواية ـ بل اننا نحس ان الشخصيات لم ترسم ويتم اختيارها الا لتعبر عن فكرة مثلما تعبر مقالات « ابليس » عن فكرة ، او مجموعة من الافكار .

هذا الكلام لا يقال هنا من باب اللوم او الانتقاد ، وانما الهدف منه هو توضيح الموقف . وبعد ذلك تبقى تلك الحقيقة التي لا تقبل الشك ، وهي ان « المستحيل » كتاب فريد .

استخدم فيه المؤلف لسان المتكلم ، وهو البطل حلمي ، ولذلك سنرى كل شيء هنا من وجهة نظر حلمي . انه يلقي ظله على احداث الرواية، وعلى شخصية فاطمة المحامية عشيقته ، ونانى حبيبته ، وامينة زوجته. ولن يتاح لنا ابدا ان نعرف هذه الشخصيات من زاوية اخرى، او بعبارة ادق : لن تعرض لنا عرضا موضوعيا . ان الجوانب الوحيدة التي تظهر من هذه الشخصيات انما تظهر لنا لان البطل حلمي اكتشفها وخبرها .

فمن هو حلمي ؟ انه ـ كالمؤلف ـ يعشق ذبذبات الحياة ، يعشق اللحظة ، حتى لو كانت مؤلمة : « وفي الحقيقة لم اكن اعلم لماذا احب القمار .. ولكني كنت احس ان كل لحظة اثناء اللعب تبدو لحظة مهمة جدا بالنسبة لي ..وهذا في نظري سبب كاف لاحب اي شيء. » (ص٥٣) وهو يتمرد على التقاليد والعادات ، ويثور على الاشياء التي تواضع عليها الناس ، ولذلك يبدو شاذا في نظر الاخرين . وكانت مأساته الاولى ارتباطه بأب يمثل هذه التقاليد الجامدة خير تمثيل ، لقد اختار له زوجته ، بل اختار له الشقة والصور التي يجب ان تعلق على جدران الشقة . واثبت حلمي وجوده في النهاية عندما تمرد على الرباط الذي يربطه بالاب ، عندما استطاع في النهاية ان يختار لنفسه الشراب الذي يفضله ، وان يرفض الاشياء التي يكرهها . بل ان هناك اشياء عابرة في الكتاب تثبت مدى كراهيته للعادة وللامور التي تسير على وتيرة واحدة . ان عربته تمثل لديه ـ لا شعوريا ـ العادة والتقاليد والجمود. ولذلك يتركها في لحظات الانطلاق ، ويفضل السير على قدميه . ففي اليوم الذي « تغير » فيه وضارب في البورصة ودخل السينما ثم الملهى يقول : « وحينما تركت الملهى في ساعة متاخرة من الليل فضلت ان اعود الى بيتي ماشيا » (ص ١٦)

وذات مرة كان يلعب القمار ، ثم استطاع ان ينتزع نفسه من حلبة المقامرين ، واخذ يتفرج عليهم ، من بعيد ، بعد ان تخلص لحظة من القيود التي كانت تشده معهم الى مائدة اللعب ، وبعد هذه الانطلاقة يخرج ليقول :«وصافحت انفي نسمات الصيف العليلة فأثرت ان امشي

* ليس معنى هذا ان تلك الحقيقة تنطبق على كافة الاطباء الفنانين.

وتركت عربتي في الجاراج ».. (ص ٥٤) اذ لم يفضل السيرلان نسمات الصيف عليلة ، وانما لانه يمر لحظة انطلاق .

وثمة شيء فريد يلفت النظر الى شخصية حلمي ، انه يكره الكذب ان الكذب يرعبه ، وهو الذي ارعبه في فاطمة العشيقة الفاتنة ، فجعله ينفر منها « واحسست ايضا .. انها تكذب .. وانها ايضا كانت تكذب وانها دائما تكذب .. وان هذا الشيء الغير حقيقي فيها هو الذي ينفرني . » (ص ٦٤)

وعندما يحدثه الخواجه متري ، مستشاره المالي ، عن جدوى النصب في التجارة والزراعة يخرج من عنده ويقول ان الحديث الذي دار بينهما كان صدمة لاعصابه ، اذ فقد فيه الكثير من ثقته وايمانه دفعة واحدة . انه يتساءل في مرارة ، بعد هذا الحديث : هل صحيح ان الدنيا نصب في نصب ؟ وهو يكره الكذب في الذين يزورونه ويعجبون بلوحة الجيوكندا ، انه يردد لهم كالببغاء المحاسن التي عددها ابوه في هذه اللوحة ، ويعيد على كل ضيف هذه القصيدة ، فيتحدث ـ على الرغم منه ـ عن الابتسامة غير المنظورة ، وعن الاعجاز ، فيؤلمه ان الضيوف المنافقين يهزون رؤوسهم في آلية ، ويكذبون على انفسهم ويصيحون « ياسلام .. حقا انها رائعة . واليدان تبتسمان .. تماما .. ياسلام .. » (ص ٦) وكراهيته للكذب تنفره من الزراعة والتجارة والمضاربة . ونستطيع ان نعثر على بوادر هذا التمرد في قصة قصيرة قديمة كتبها المؤلف وضمنها مجموعته « قطعة السكر » التي نشرها الكتاب الذهبي في مايو عام ١٩٥٩ ، والقصة بعنوان « لا احد » وبطلها قد فتح محلا لبيع وشراء الكتب القديمة ، والبطل هنا بفاجيء نفسه في تمرد :

« ان كل ماحدث انك امتلكت دكانا .. فتغيرت .. تغيرت دون ان تدري .. اصبحت تدفع مع ايصالات النور والماء وايجار الدكان اقساطا من ضميرك كل شهر .. وهكذا بفعل اصحاب الدكاكين .. وكل التجار .. فانت تكذب وانت تشتري الكتب .. وانت تكذب وانت تبيعها . » (ص ٥٤)

وعندما تغير حلمي ، بعد اسطورة الاب ، صار يتمرد على كل ماهو سلبي ، وينجذب الى الايجابي ، مهما كانت صورة هذه الايجابية ، انه ينجذب الى فاطمة المحامية بالرغم من ان ايجابيتها مدمرة ، وينجذب الى ناني ، بالرغم من ان حبها المتصوف ـ الايجابي ـ يعذبه . اما زوجته السلبية أمينة ، تلك المرأة الطيبة ، فلا تثير في نفسه أي شعور بل لاتثير في نفسه شعورا بكراهيتها ، انها اتفه من ان تثير في نفسه شيئا .

واذا كان حلمي لم يحقق في الكتاب انتصارات كثيرة ، واذا كان يقف حائرا امام الحاجز المحزن الذي خلقه حبه لناني وحب ناني له ، الا انه حقق انتصارا كبيرا حين اختار لنفسه شيئا (ص ١٣٦) لقد رفض الارض بمغرياتها ، ووراء رفضه لها يكمن رفضه لكل ماهو تقليدي ، ولكل ما كان يربطه بالاب . انه يريد في النهاية ان يحقق ذاته. ومما يؤهله لهذه الغاية انه لايحب الكذب كما أسلفنا « لا استطيع ان اكون شيئا اخر غير نفسي .. » (ص ١٣٦) . ثم يستطرد قائلا :

« افضل ان اعيش حياة صغيرة املكها .. عن ان اعيش حياة كبيرة تملكني .. اريد ان اكون حرا .. اريد ان اقطع صلتي بكل مايفرض علي واجبات لا احبها .. انا اكره الواجبات كلها . »

ننتقل الى فاطمه .. من هي فاطمه ؟ لقد وصف المؤلف عبثها وجرأتها وتصويرها لدور الانثى في اول لقاء بينها وبين حلمي في حفلة عيد الميلاد ، ووصفها من جديد عندما ذهب حلمي اليها في مكتبها ليبحث في قضية الوقف . ووصفها ايضا اثناء مرضها . انها امرأة ماكرة جدا ترسم الخطط وتنفذها وتعرف ماذا تريد ، لقد ذهب اليها ليحدثها عن قضية ، قضية الوقف ، ولكنه يقع في شباكها ، ويذكرها بقضية ويسألها ماذا ستفعل في قضية الوقف فتجيب ضاحكة : « ان الوقف هو انت وقد حللنا الوقف .. لم تعد خرابة موقوفه على زوجتك كما كنت زمان .. وانما اصبحت ملعب كره .. اليس هذا انتصارا رائعا .. هل رايت دفاعا يفوز بالحكم بهذه السرعة ؟ » (ص ٥٦)

ولكن ، بالرغم من اغراء فاطمه وعبثها واحتلالها لصفحات كثيرة من الكتاب ، لانحس انها انثى من لحم وعظام . ان معظم حوارها مع حلمي لايعدو ان يكون حوارا جدليا بلاغيا . صحيح انها متعلمة غير انها لاتعبر عن الواقع بحذافيره ، ان كلامها عن الحرية والمرأة خطب ومواعظ ، وكلامها عن الرجل بيانات وحجج ، وهكذا ، وواضح تماما ان المؤلف عبث بها واستخدمها للتعبير عن افكار ، لا للتعبير عن حياة متكاملة تتحرك داخل عمل فني .

اما ناني ، تلك المرأة الرقيقة التي احبها حلمي في النهاية فتقف مع فاطمة على الطرف الاخر ، انها صورة مقابلة تماما لشخصية فاطمه . ان فاطمة تفعل ماتريد ، قائلة ان الباقيات منافقات ويحلمن بان يتصرفن مثلها بحرية . اما ناني ، الحزينة الوادعة ، فلا تستطيع ان تحلم بذلة من هذه الحرية . ويسألها حلمي : الم تكن لها أمنية وهي صغيرة ؟

وبعد تردد تجيب في وداعة :

« كنت اتمنى ان اكون ولدا .. فقد كنت ارى الاولاد حولي يفعلون كل شيء . وانا والبنات نستاذن لنفعل اي شيء .. حتى اذا اردنا ان نشرب .. » (ص ٧٦) وتعزف المسكينة دائما لحن « الطائر السجين » لفرناندو ، وهي في واد وزوجها في واد ، وهذه الماساة التي تجثم على انفاس كل شخصية في الرواية . ان حلمي الزوج في واد وزوجته امينه في واد . وناني في واد وزوجها السمين في واد . ان هناك ستارا مؤلما يفصل بين كل طرفين ويتسبب في وقوع اشياء مؤلمة . ويتصل بهذه المأساة ـ وينتج عنها ـ احساس معظم الشخصيات بالوحدةوالعزلة والفراغ ، حتى فاطمه ، انها في النهاية امرأة مسكينة ، ضائعة ، وحيدة.

واريد ان اقف عند هذه النقطة لحظة ، اريد ان اشير الى مأساة

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من ديوان

قصائد عربية

للشاعر سليمان العيسى

دار الاداب ـ بيروت

« المستحيل » ، انها تتمثل في الوحدة والعزلة وانغلاق كل مخلوق على نفسه . انها ماساة حلمي : « وسرت استاف الهواء في خياشيمي .. واهز يدي جانبي .. وانظر الى الناس .. وكل واحد فيهم يسير ملفوفا في مشاكله كانه دنيا صغيرة .. لايفيق منها الا لحظات ، يتلفت حوله هاهو واحد يعرفه . واهلا وسهلا . كنت فين . مضى وقت طويل لم نـرك . لابد ان تزورنا يا اخي .. ثم يعود فيغطس في دنياه ويغلق باب قمرته. ويبحر الى الاعماق البعيدة في نفسه .

ويبحـر .. يبحـر الى اين !!؟

وتشوقت الى شاطىء .. » (ص ٥٥)

ان جميع شخصيات المستحيل تبحث عن شاطىء . وشاطىء حلمي ، في اول الامر ، هو فاطمه ، غير ان جسديهما لايقضيان على العزلة ، على ماساة « المستحيل » :

« لم تقو اللذة الجسدية التي جمعتنا ثلاثة ايـام متوالية على ان تتغلب على هذا الشعور (الشعور بعدم الارتياح) .. وظلت علاقتـي معها بالجسد وحده .. بينما روحي تهوم بعيدة نافرة .. » (ص ٦٢)

وامينه الطيبة تعاني من الوحدة وتدركها ، بالرغم من سلبيتها . انها تعاني من الوحدة وزوجها حلمي يلعب القمار ويضحك ويعبث ، وعندمـا يعود من رحلة الاثم مع فاطمة ، تظن انه حزين لان والده مات ، ثم تبكي وهي تتذكر ماساتها ، ماساة الوحدة والعزلة ، وتقول له « منذ شهـور ونحن نعيش بعيدين منفصلين كاننا غرباء .. » (ص ٧٨)

ونخرج من الكتاب وفي فمنا مرارة العلقم ، ان الكتاب يقـول لنا : ما اقل الاشياء التي يمكن ان تتحقق في دنيا الواقع ، واذا كان ثمة شيء واحد مشرق فهو قدرتنا على تحقيق الاشياء في اعماقنا فقط ، في داخلنا بعد ان فشلنا في تحقيقها في الخارج . هذا هو الدرس الذي تلقنـه ناني لحلمي ، وهذه هي طريقتها الوحيدة في تحقيق المستحيل ، فحلمي مجنون بها ، يريد ان يتزوجها ، انه يصرخ : لن يكون في الدنيا حـب اذا لم نتزوج .. فتجيب انه ليس هناك في الدنيا حب وانما « الحـب في قلوبنا وليس في الدنيا .. انه في وهمنا فقط . » (ص ١٤٣)

ولقد قرات معظم ماكتب عن « المستحيل » واتضح في هذه الكتابات ان كل كاتب يتناول « المستحيل » من زاوية . لقد كان لـ « المستحيل » معان تتعدد بتعدد الكتاب . وكانت المشكلة (وهي المشكلة التي وقعت انـا الاخر ضحية لها) اننا نؤكد النقاط التي تهمنا ، والنقاط التـي يثيرها الكتاب في نفوسنا ، على حساب نقاط اخرى هامة ، ان الذاتية شبح رهيب يترصد كل من يتعرض للاعمال الفنية ، خاصة اذا كانـت من طـراز « المستحيل » . ذلك لان الكتاب لايترك القارىء مستريحـا او هادئا او حياديا ، وهو لايحل له كل شيء ، انه يتحداه ، ويزعجه ، ويطالبه بان يتخذ منه موقفا ! ان اي قارىء لايجد مفرا من ان يقف مـع حلمي او ضده ، ولا يجد مناصا من الرثاء لفاطمه او الاحساس بالتقزز نحوها ، وينطبق هذا ايضا على بقية الشخصيات .

فاذا انتقلنا الى الاسلوب وجدنا انه اسلوب خواطر ويوميـات واعترافات . ان هناك عبارات تحتل سطرا او سطرين فقط ، وهنـاك نقاط كثيرة تعترض سير الكلمات ، وهناك صفحات كاملة تشترك مـع الشعر المنثور في ملامح كثيرة . ويقودنا الحديث عن الاسلوب الى التعرض للتشبيهات . ان غالبيتها تشبيهات حيوانية ، وتشبيهات تتصل بالطير والحشرات ، فالطبال يدور حول الراقصة كالقرد ، وبد فاطمة المحامية كالعرسه ، وفاطمة تشبه جسد حلمي البارد بجسم الضفدعة ، وتخبره بان زوجها كان حيوانا ، وانه كان غليظا كالثور ، يخور وهو يتكلم ،وفاطمة تحب من الرجال النوع القططي ، وتسخر من حب الرجال للفضيلة مع انهم اقذر الخنازير . وعندما ذهب حلمي الى حفلة القمار اخذ يلعـب ويكسب ويقرقر في سعادة « كالقطة التي اكلت جيدا ووجدت مكانا لينا دافئا تتمدد عليه .. » (ص ٥٢) والمقطوعة التي تعزفها ناني دائمـا هي مقطوعة « الطائر السجين » . وحلمي يصيح وهو في قمة النشوة مع فاطمه : يا حيوانة ، وعندما بدأ يضيق بها اخذ يحس بالهواء لانـه ترك جسده يقوده كالدابة ، والخواجه متري يذكر البطل دائما بان كـل الناس وحوش ، يفترسون بعضهم البعض . وناني تتحدث عن سوس القلق الذي ياكلها . وحلمي عندما يسافر الى سوهاج يقابل مع الخولي رجـلا يشبه الجرادة ، وهذا الرجل كانت عينه « وارمه زي عين الجمل . » (ص ١٢٩)

ولفت نظري كثرة اشارة المؤلف الى الشاي ، وخيل الي ان الشاي يذكر في « المستحيل » دائما في لحظات الازمة ! فحلمي يشير الى ابيه وكيف انه كان يجبرهم على شرب الشاي ، وبعد ان تخلص من قيد ابيه احضرت له زوجته كوبا من الشاي فصاح « انـا لااحـب الشاي » (ص ١٠) وعندما يلتقي بناني ، في بيتها ، ويلمس الوحدة والغربة والاستسلام الحزين الكامن في عينيها تقوم زوجته لتحضر الشاي ، ثـم تجيء بالشاي ، وعندما ذهب هو وزوجته وابنه وناني الى الكازينـو تتحدث ناني عن وحدتها وآلامها وارقها ثم يرتفع صوت الملاعق وفناجين الشاي .

انني اختم المقال بهذا السؤال : ماحكاية الشاي هذه ؟ وما هـو ياتـرى ارتباطها النفسي بالنسبة للبطل ، او بعبارة افصح : بالنسبة للمـؤلف ؟

القاهـرة — **محمد عبد الله الشفقي**

أغـاني العـودة

للشاعر علي هاشم رشيد

*

عاصر الشاعر علي هاشم رشيد تاريخ بلاده الحي الحزين ، ولمس لمس اليد خيانة انجلترا لبلده الغالي فلسطين ، وعاش كارثتها في عـام ١٩٤٨ ، وشهد مآسي المشردين واللاجئين في غـزة مسقط رأسه فانقلب هذا الوديع الطيب ، انسانا يُطوّف بقلبه الحقـد على غاصبي بلاده والمتآمرين عليهـا .

ولا على الانسان ان يحقد ويكره ويثور لذلك ، فما بالنا بالشاعر المرهف الاحساس . لا عليه اذا اندلع لهب الحقد والثورة على شبات قلمه ، فذلك هو الحقد المقدس من اجل مقومات الحياة ، من اجـل الوطن الذي افترسته الذئاب .

هذا الحقد الشريف المقدس غمر طائفة من قصائده وعلى راسها قصيدته « الشريد » وهي ألمع درة من دراري هذا الديوان لما وعته مـن تجربة حقيقية من تجارب الضياع والحرمان ، تجربة لم يؤدها تأدية مختصرة ، بل تأدية مفصلة ، يسري فيها متنوع الانفعالات الاليمة وتبرز فيها عاطفة الحقد الشريفة . وفيها يقول :

انا يا اخي الانسـان مثلك كـان لي وطن حبيب
قد كنت فيه اعيش في رغـد وفي عيش رحيب
وبه الحدائق والجبـال الشم والمرج الخصيب
وبـه الامـاني العـذاب وشمس عز لا تغيب

أجل ، لقد كان يعيش في رغد ، في احضان شجرات الزيتون والبرتقال ، وبين الجبال الشم ولكنه اقصي عن بلاده ليقيم بها الغريب، فاحس حقيقة بما لم يحسه احد من المحتلين بمعنى الحرمان والضياع:

أتراك تعرف يا أخي الانسـان ما معنـى الضيـاع
أتراك تشعر مـا اقاسي مـن شقـاء والتيـاع
فاليك قصة موطني المنكوب فـي هذي البقـاع

وانها ليست قصة وانما هي ماساة عالمية ، انتهت بالطالب،والزارع، والعامل ، والام وكل من يصنع الحياة ، بالعدم . حتى الطير الوادع في غابة الزيتون قد قتل ،، وفي موسقة هامسة يعبر الشاعر عن هذا يقول :

كان الحمام يرف في بيتي وينعم بالهديل
في غابة الزيتون في رغد وفي ظل ظليل
قتل الحمام ، وقطّع الزيتون غدار دخيل
واذا بموطني الحبيب يعيش في ليل طويل

الوطن الحبيب هجره عنوة ساكنه ، وغدا صاحبه يضرب في الارض على غير هدى . ولم يعرف الا في القرن العشرين ظلم كهذاالظلم، ولا غدر كهذا الغدر . يقول :

وغدوت اضرب في القفار بلا انيس او معين
والبيت بيتي خلف اسلاك من الافك المبين
نفسي تحن بلوعة فيكاد يقتلني الحنين
اسمعت عن ظلم كهذا الظلم في عبر السنين

* *

اصبحت في كوخ حقير بعد عالية القصور
اصبحت منبوذا تقاذفني المنايا والدهور
والسل ينخر فيالعظام وفيالعروق وفيالصدور
والجوع والتشريد والحرمان أكواب تدور

* *

ومع الجوع ، فانه يغتذي بالحقد المقدس وتضيء له في الظلمات شعاعات الامل ، الامل في العودة ، واليوم قريب ، قريب وان رآه الظالمون بعيدا . وفي ذلك يقول :

انى ساصنع من لهيب الحقد ثارا اي ثار
انى سابني الوحدة الكبرى ففيها كل نصري
انا مؤمن بعروبتي ، انا واثق ببزوغ فجري !

اما كيف يبزغ الفجر ، فهو متاكد واثق من بزوغه بما يحمل بنو وطنه من شوق على النضال واصرار ، وبما يؤمل اكيدا في ابناء العمومة من عون . فاذا ما وجد هذ العون سار الجيش العربي الى يافا ، العزيزة عروس البحر ، فاذا ما استولى على يافا كانت تل ابيب قريبة المنال . يقول :

سنسير يا وطني اليك بزمجرات من نضال
وترف رايات العروبة ، فوق هامات الرجال
سنسير جيشا عارما لجبا صمودا كالجبال
سنسير قائدنا ورائدنا الى يافا جمال

- ٢ -

لا الى يافا فقط بل الى حيفا ملتقى شجعان العرب ، ومن جبل الكرمل يعلن هؤلاء الزحف المقدس ، وذلك ما خططه في قصيدته « نسر العروبة » وهي درة ثانية من درر الديوان ، وقد استهلهابقوله :

لا تياسي اختاه فالغد للشباب
ولامة تسعى ولا تخشى الصعاب
انا نسير ، نسير دوما لا نهاب
فسفينة العرب القوية شقت اليوم العباب

* *

وتخط في سفر الخلود
مجدا كما خط الجدود
وغدا نعود ، غدا نعود
صفا ونعصف بالحدود

* *

لا تياسي فغدا بحيفا فوق كرملنا اللقاء
في زحفة للثار نسعى حينما يعلو النداء
وبخط آيات الخلود مدادها قاني الدماء
فدم الشهيد بدرب عودتنا ولقيانا ضياء

* *

وقد يقول قائل انها احلام شاعر . فكيف تكون العودة ، وعلى اي اساس يقوم هذا الامل الكبير ، وبعض بلاد العروبة في خلاف . ولكن الشاعر يعتمد اول ما يعتمد على امته وعلى شبابها ، كما يعتمد على ابناء العروبة وشعوبها . هذه الشعوب التي توحدت كلمتها في كل قضية عربية عادلة ، توحدت في ماساة فلسطين ، كما توحدت في قناة السويس ، وفي قضية الجزائر . وفي قصيدة « الامل الكبير » القصيدة الحرة التي يرى فيها فجر الزحف ، وصباح النصر ، يقول :

اني ارى ذاك الصباح اراه رغم المفترين
اراه رغم الظلم يعصف من شمال او يمين
اني اراه ارى جموع الزاحفين العائدين
وانا وانتم في الجموع العائدين
اذ ذاك تبتسم الحياة ونجتني ثمر الصمود
هذا الصمود
هذا الطريق الى الخلود لكي نعود
ومع الشروق شروق عزم العاملين
الباذلين الروح للوطن الثمين
اذ ذاك في يافا تحيينا الرياض
وهناك في يافا على الشط الجميل
يتفتح الامل الكبير

(١) محاضرة القيت برابطة الادب الحديث في ٦ - ١٢ - ١٩٦٠

من منشورات دار الآداب

دواوين نزار قباني

زينة لكل مكتبة

	الثمن
قصائد نزار قباني	٣٠٠ ق.ل
قالت لي السمراء	٣٠٠ ق.ل
طفولة نهد	٣٠٠ ق.ل
سامبا	١٠٠ ق.ل
انت لي	٢٥٠ ق.ل

دار الآداب

بيروت - ص.ب ٤١٢٣

أمل العروبة في اتحاد يجمع الشعب الكبير

ويعجب الكثير منا وهو يسمع هذا الشاعر وغيره من الشعراء ، وهو يردد القول ولا يمل من الترديد انه يرى الفجر ، يرى النازحين عائدين ، فيتساءل كيف يراه ؟ ان هو الا رؤية شاعر ، يهيم في الخيال. وقد سالت الشاعر هذا السؤال ، ولكنه اكد انه يراه . ومد اصبعه الى خريطة بلده الضحية ، الى بلدة طولكرم ، وقال من هنا يمكن ان نبدأ الزحف الى تل ابيب والى يافا الحبيبة ، من هنا ... ونحن نؤمن بالغد ، والغد يصنع المعجزات ، ووجدت في قصيدته « انا لي غدى » معنى ما يقول ، وهي درة ثالثة في الديوان وفيها يقول :

هم يزعمون بانني اقضي الحياة بلا غد
ويلف آمالي الكبار جناح طير اسود
وسفينة الاحلام قد غرقت ببحر مزبد
خابوا فاني مطلع شمس التحرر في غدي

* *

انا في دم الثوار في وطن يعز بكل ثائر
وعلى ذرى عيبال اخواني وفي ارض الجزائر
اني سميط النار تقرع كل غدار وجائر
اني نداء الثار تبعثه الى العزم الضمائر

وكدت اومن بالعودة ، عودة هذا الشعب الثائر الذي يستقطب القوة من المحنة ، والعزيمة من الموجدة ، والنصر من الهزيمة ، ويقتات من الايمان بالغد المضيء .

- ٣ -

وكيف لا يؤمن بالغد وقد شهد ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ مصر ، تخرج الاجنبي الدخيل في عام ١٩٥٦ ويكتب لها النصر في العدوان الثلاثي فيحيي الثورة بقصيدته « تحية ثورة مصر » ويرحب برئيسها في قصيدته « مرحى جمال » ويلمس آثار هذه الثورة في ثورات تونس ، ومراكش ، والجزائر ثم تندلع ثورة ١٤ تموز سنة ١٩٥٨ في العراق ، فيهتز قلبه طربا ويذكرها بقصيدته البديعة « عروس الحرية » ويرى في هذه الثورة بشيرا بالعودة الى ارض الجدود وفي هذه القصيدة يقول :

جاء البشير بيوم عودتنا الى ارض الجدود
يوم نحقق فيه وحدتنا ونكتسح السدود
ونزيل باسم الحق هاتيك المعاقل والحدود
ونطهر الارض الحبيبة من اكاذيب اليهود
والنازح المظلوم رغم الخصم للعليا يعود

هذا هو المد العربي الثوري الذي يجتاح الحدود والسدود ، المد الثوري الذي اخرج انجلترا من مصر ، وجعلها تنتصر على دول ثلاث ، المد الثوري الذي اقتلع المتجبرين والطغاة والمحتلين في العراق فهوت الطواغيت لان ارض العروبة للدخيل حرام كما يقول .

* *

وفي القصائد الخمس التي علقنا عليها تعليقا موضوعيا نجد الشاعر قد تحدث حديثا مطلقا ، بمعنى ان فكراته فيها كانت مجردة ، ولم يات باحداث خاصة مفصلة اللهم الا في قصيدته « الشريد » واذا كان هذا مقبولا من شعراء العربية الذين لم يعايشوا تاريخ فلسطين ولا احداثها وكوارثها وانتصاراتها ، فانه يؤخذ على شاعر مثل علي هاشم رشيد الذي يعرف هذا التاريخ معرفة واعية ، ويعرف اشخاص ابطاله معرفة وثيقة، وقد حدثنا عن طائفة من احداث هذا البلد التاعس فردية وعامة حديثا كاد يستثير دموعنا فما باله لم يترجم بالشعر عن هذه الاحداث ، والشعر قادر على ان يعبر عنها في قوة وتاثير بالغين .

وربما خفف من مؤاخذتنا له ما تضمنه ديوانه من قصيدة يتيمة ولكنها قصيدة بارعة هي قصيدته « رسالة من الكويت » وهي تسجل ماساة فلسطين من بدئها لختامها ، وتترجم عن مأساة صبية كانت تعيش في حيفا في بيت على جبل الكرمل يطل على البحر الابيض ، وعلى مقربة مدينة عكا التاريخية وفي فترة ما قبل حرب ١٩٤٨ أعلن الانجليز اخلاء فلسطين ليمكنوا لليهود من الاستيلاء على مدنها بخطة محكمة مدبرة ، ففي ٢١ ابريل سنة ١٩٤٨ حسبما جاء في كتاب الجاهد العربي الالمعي عبد الله التل « كارثة فلسطين » قرر الانجليز اخلاء جميع المراكز التي تحتلها القوات البريطانية في حيفا ، فتقدم اليهود واحتلوا المواقع المحصنة ، وراحوا يشنون الغارات على العرب ويصلونهم من نيرانهم ، ففزع العرب لهذا الهجوم المفاجيء ووقف الانجليز يمنعون اي نجدة من النجدات العربية من الوصول الى المدينة ، وتمكن الالاف من هجرة المدينة تاركين جميع ما يملكون ، وكانت هذه الصبية من بين هؤلاء النازحين ، ودار بها الزمن فذهبت تعمل بالكويت ، وارسلت للشاعر هذه الرسالة تعبر عن آلامها وذكرياتها واشواقها في العودة :

انا في الكويت الان اكتب للعروبة
ولاخوتي في كل منعطف يمر به الطريق
انا بنت حيفا قد ولدت على سفوح الكرمل
ونشات في مسرى الجمال
فوق الرمال
وعببت من فيض العطور ومن شذى سفح الجبل

* *

اأختي اني قد كتبت اليك فلتقرا كتابي
فهو قصة
قد خلفت في الصدر غصة

صدر حديثا :

الطبعة الثانية من

سارتر والوجودية

كتاب لابد ان يقراه كل من يريد ان يفهم آثار سارتر

تأليف

م. البيريس

ترجمة الدكتور سهيل ادريس

منشورات دار الآداب - بيروت

لكنها تركت فؤادا لانبلاج الفجر ناظـر

* *

وتأخذ في سرد ذكرياتها السعيدة تقول :

اني لاذكر أنني قد كنت احيـــا
في موطن كل الجمال عليه يحيـــا
والكرمل المعطار يزخر بالظلال
وملاعب الاطفال تحت التينة الورقاء لا زالت ظليله
اني اراها من هنا من مسكني عبر الفيافي
فهي لا زالت ظليلـــة
ترنو لنـا في نظرة الثكلى الحزينة
أرجوحتي فـوق الجبـل
في الكرمل المحبوب في رأس الجبـــل
هي لا تزال هناك تنتظر الرجوع
وأنا هنـا ارنو لها عبر الحدود

* *

وتستمر لاهجة بهذه الذكريات تكررها وتعيدها وفي تكرارهاحلاوة، ثم تأخذ بنا او يأخذ بنا الشاعر الى مشهد اخر ، هو عكا القريبة مـــن حيفا ورؤية سكان جبل الكرمل لها وهم في بيوتهم تقول :

وامد طرفي للشمال ـ فأرى الجمـــال
وحصون عكا من بعيـــد في اختيـــال
ترنو الى التـــاريخ باسمة وتزهو كالجبـــال
في ظلهـــا كان النضـــال ولا يزال بهـا نضال
لو ان للاحجـار ان تشكو لثـارت كالرجـــال

وتكشف لنا عن مشهد حيفا في الليـــل ، والبحر العظيم يغسل اقدامها . تقول :

واذا عروس الكرمل المعطار في حلل البهـــاء
بنوافـذ مثـل النجوم تطـــل للبحـر العظيم
ترنو الـى الاضواء في تلك البواخر والزوارق
للـه يا تلك العيون ـ في ظل كرملنـا الحنون

* *

وبعد هذه الذكريات تعود الى الحدث التاريخي الاثيم الذي وقع من الانجليز وتآمرهم مع اليهود ، حتى تمكن اليهود من الاستيلاء علـى حيفا ، واخراج سكانها منها ، فرحل الى لبنان ٧٠،٠٠٠ مهاجر ، وكانت هذه الحادثة بداية مشكلة المهاجرين كما يقول المجاهد عبدالله التل . والشاعر هنا يذكر كيف دخل اليهود على غرة ، وكيف دارت المعركـــة بينهم وبين العرب العزل من السلاح ، يقول :

وتدور معركـــة الحيـــاه
ولا تزال ليومنـــا هـــذا تدور
ورأيت كرملنـــا الحبيب يضـــج بالمستعمرين
أين الذخيرة ؟ لا ذخيرة بـين أيدي الثـائرين !
نفدت وجيش المجرم المحتـــل جيش الانجليز
يعطي الخصوم مـا يطلبون
ولـه بابواب المدينة وقفـــة المتآمرين
فـلا خروج ولا دخـول
كيمـــا يُباد الشعب في بلدي الحبيب

* *

وأخذت تذكر كيف انتهى بها الحال بعد هذه المؤامرة الاثيمة التي ارتكبت في حيفا ويافا وغيرها من عرائس بلاد فلسطين ، وكيف ركبت زورقا مع النســـاء والشيوخ ، زورقا صغيرا يهتز في البحر العظيم ، ولكنها ادركت بحدسها انّها من المشردين وكانت حقـــا من اللاجئين ، واخذت تذكر هذه العيشة . تقول :

وعرفت عيش اللاجئين
ومعسكرات مثلهـــا بعض السجون
وعرفت توزيـــع الحليب ومـا يجود المحسنون
وعرفت اسـلاك المعسكر حيث يحيـا النازحون
وشببت في هذا المحيط اللجب اهزأ بالمنـون

* *

ثم تعود الى بداية القصة تقول في شجى :

انا في الكويت اليوم اعمل كي اعيـل النازحين
فابي مضى مستشهـدا في الكرمـــل
واخي واختي في جموع النازحين
وكذلك امي بـين رهط اللاجئين
انا في الكويت اليـوم أعمـل كي أعـود

* *

هذه هي القصة التي ابدعها الشاعر وهي في رأيي قلادة العقد في هذا الديوان ، حقا ان فيها بعض الفقرات التي تحتاج الى تكثيـف وتركيز ، ولكنها تمثل الشعر البديع المتحرر من القيود ، وقد انطلق الشاعر متحررا ايضا من التفعيلة الواحدة . وقد اثر فينا كل التاثير، واهدى الينا مجموعة من الخواطر الخاصة والعامة جمعها في سبيكة متقنة الصنع .

وبعد ، فانه لا يسعني الا ان احمد للشـاعر ديوانه الذي لا يعد ترانيم للعودة ، بل قوى دافعة ياذنة للنصر ، والعودة القريبة باذن اللـه .

القاهرة — مصطفى عبد اللطيف السحرتي

مجموعات الآداب

لدى الادارة عدد محدود من مجموعات السنـوات الثماني الاولى من الاداب تباع كما يلي :

	غير مجلدة	مجلدة
مجموعة السنة الاولى	٩٥ ل.ل	١٠٠ ل.ل
« « الثانية	٢٥ «	٣٠ «
« « الثالثة	٢٥ «	٣٠ «
« « الرابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الخامسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السادسة	٢٥ «	٣٠ «
« « السابعة	٢٥ «	٣٠ «
« « الثامنة	٢٥ «	٣٠ «